الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الدراسة الجامعية كما يفهمها الأستاذ أحمد أمين — كيف تتقرب ومعك الملك ؟ — الشكوى إلى ضريح الامام الشافعي تصور يأس الناس من العدل في الأرض ، فهم يلتمسونه في السماء — إلى وزير الأوقاف — مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية ...

الدراسة الجامعية

للأستاذ أحمد أمين آراء تظهر من وقت إلى وقت ، فتدل على مبلغ فهمه للحياة الأدبية والاجتماعية ، وهي آراء لا تحتمل النقض ، لأنها في الأغلب واهية البنيان ، والمعوّل لا ينقضّ إلا على البناء المتين

وآخرُ ما صدَر من تلك الآراء ، هو حكمه على الدراسة الجامعية ، فهو يرى أنها « تجعل من الحبة قُبَّة ، ومن الهزل جدًّا ، وإن شاءت فمن الجد هزلاً » ؛ ثم يقرر بعبارة صريحة أن الدراسة الجامعية : « تميت الحي وتحيي الميت ، فهي تحيي اللاتينية واليونانية والحبشية والأكادية وقد ماتت ؛ وهي تميت الحي ، فتدرس اللغات الحية دراسة تميتها وتُفقدها روحها ، وتُبعد عن تذوّقها ، ولذلك قلّ أن تُخرج الجامعة أديباً شاعراً أو كاتباً ، وإنما تخرج أديباً ناقداً أو أديباً عالماً ؛ ومن كان أديباً من رجال الجامعة فمن طبعه ونفسه ، لا من الدراسات الجامعية ، وإن شئت فقل إنه أديب برغم الدراسات الجامعية ، لا بفضل الدراسات الجامعية »

ذلك ما قاله الأستاذ أحمد أمين في العدد ١٤٢ من مجلة الثقافة الغراء ، وهو أعجب ما صدر عن هذا الرجل المفضال

وقبل أن أنقض رأيه في الدراسة الجامعية أقرر أن كلية الآداب لا تُطوّق بهذا الرأي ، ولن يكون حجة على أساتذتها وطلابها وخريجيها ، فيشمت فيهم الدَّرعميُّون والكلفريون[1] . فكلية الآداب هي صوت مصر الأدبي في الشرق ، ولن يضيرها أن يخطئ أحد المنتسبين إليها بكلمة يكتبها في وقت لم يكن يصلح فيه لجد ولا لعب ، كما صرّح بذلك في تلك الكلمة الواهية

ثم أواجه الموضوع فأقول :

أتكون مهمة الدراسة الجامعية أن تجعل من الحبة قبة ؟ أم تكون مهمتها أن تمنع الحبة من أن تصير قبة ، وأن تحمي القبة من أن تصير حَبَّة ؟

المنطق يوجب أن تكون مهمة الدراسة الجامعية هي إقرار الحقائق في نصابها الصحيح ، بلا تزيّد ولا تحيّف ، وإلا كانت دراسة بهلوانية !

ثم أقول : كيف يكون واجب الدراسة الجامعية أن تجعل من الهزل جداً ، ومن الجد هزلاً ؟

يصح أن يقال إن الدراسة الجامعية ترى كل شيء صالحاً للدرس ولو كان من الهزل ، لأن العلم رجده جد وهزله جد ، ولكن كيف يصير الجد هزلاً بفضل الدراسة الجامعية ؟

ثم يحكم بأن الدراسة الجامعية « تدرس اللغات الحية دراسة تميتها ، وتفقدها روحها ، وتُبعد عن تذوّقها »

فمن أين أخذ هذا الرأي ؟ وعمن سمع هذا القول ؟

أتكون الحالة كذلك في كلية الآداب لهذا العهد ؟

ثم يرى الأستاذ أحمد أمين أنه يقلّ أن تُخرج الجامعة أديباً ، شاعراً أو كاتباً ، وإنما تُخرج أديباً ناقداً أو عالماً . فهل يستطيع أن يدلنا كيف تستطيع الجامعة أن تُخرج الأديب الناقد أو العالم وهي تدرس اللغة دراسة تميتها وتفقدها حيويتها وتبعد عن تذوقها ؟

إن الأصل المتفق عليه أن النقد هو إدراك الصلات الوثيقة بين الألفاظ والمعاني والأغراض ، فإذا صح أن الدراسات الجامعية تنحرف بالأستاذ والطالب عن ذلك الأصل فكيف تخرج الجامعة أديباً ناقداً وقد تعلّم على أساس منخوب ؟

والأصل في العلم أن يصل بصاحبه إلى فهم الحقائق على ما هي عليه ، فكيف تخرج الجامعة أديباً عالماً وقد أُبعد عمداً عن تذوّق الجمال الأدبي ؟

كيف تقترب ومعك فلوك

قرأت خطابك يا صديقي ، وعزّ عليّ أن يقع في حياتك ما يزعجك ، ولو شئت لنصحت على اسمك وبلدك لتكون

(١) « الدرعميون » : أبناء دار العلوم ؛ « والكلفريون » : أبناء كلية اللغة العربية

المواساة جهيرة الصوت ، لا يصدها تهيب ، ولا يستترها حجاب ، ولكن حرصي على استقلالك يمنع من هذه المواساة الجهرية ، فما أحب لأرباب الأقلام أن يحتاجوا إلى أسندة من العطف والإشفاق على صفحات الجرائد والمجلات ، وإن كان ذلك من الأساليب المألوفة في العصر الحديث

إن الذي يعوزك هو الثقة بنفسك ، لتأنس بقلمك ، فلا تشعر بضجر الاغتراب في بلدك وبين قومك ، فقد كتب الله الغربة على أهل الفكر والعقل ، ولو عاشوا في رحاب عشيرتهم الأقربين ... ألا تذكر قول أبي تمام في اغتراب أحد الفضلاء :

غربته العلا على كثرة الأهل فأمسى في الأقربين جنيبا

فليطل عمرك فلومات في « مرو » « وَ » مقيماً بها لمات غريباً

فما رأيت أصدق من هذين البيتين في وصف ابتلاء أهل الفضل بالغربة والتوحد ، وإن كانوا محفوفين بالمئات من الأصحاب والسجراء ، ولا نظرت في هذين البيتين إلا حدت الأقدار التي قضت بأن يكون في ماضينا الأدبي معان كهذه المعاني ... طيب الله ثراك ياحبيب !

على أنه لا بد من لومك على ما استجزت من إعلان التبرم بالناس ، ففي رسائلك إليّ ما يشهد بأنك على جانب من الغفلة ، فقد كنت تتوهم أن الناس سيقيمون لك التماثيل في حياتك ، لأنك واجههم بالطرائف الروحية والذوقية ، وفاتك أن تذكر أن « كل ذي نعمة محسود » وأن الفضل قد يعد من أكبر الذنوب ، لأنه يمنح أصحابه سلطاناً لا يزول ، ولأنه الآية الباقية على الزمان ، الآية التي تشهد بأن لله حكمة في إعزاز أرباب المواهب ، ولو كانوا فقراء الجيوب ، والفقر فقر القلب لا فقر الجيب ...

يجب أن تعرف أن الذين يحاربونك لأنك جهرت بهذا الرأي أو ذاك ، لا يحاربونك مجاهدين ، وإنما يحاربونك مغتاظين ، فهم حطب جهنم ، ولو غطوا أقوالهم بألف رداء من أردية الرياء

هل تفهم قول أبي فراس ؟

ومن شرفي أن لا يزال يعيبني حسود على الأمر الذي هو عائب

إفهم هذا البيت ، فما وجدت من يفهمه على الوجه الصحيح

معنى هذا البيت أن الشاعر يؤاخذ بأقوال وأعمال يتمنى عائبوه أن تكون من زادهم المكسوب ، وكذلك يتمنى خصومنا أن نخلع عيوبنا عليهم ، لأنهم يعرفون أنها عيوب رجال ، وعيوب الرجل هي البسف والسيطرة والاقتحام في ميادين لا يطيقها غير الفحول

فإن صدقت فراستي فيك فستكون لك أنصبة ضخام مما يجيده صاغة الزور والبهتان ، وسيكون حاضرك وماضيك هدفاً لكل أفاك أثيم ، إلا أن ترى الأقدار أنك جدير بالرحمة من قبل الأمانة الفكرية والعقلية ، فتردك شهباً لا يثور عليه حاقد ولا حاسد ولا جهول

إسمع ، يا صديق !

في كل ميدان تقوم جماعة من أهل الشجاعة والاستبسال ، فهذه جماعة تقاتل في ميدان الوطنية ، وتلك جماعة تخاطر في ميدان الاقتصاد ، إلى آخر ما أعرف وتعرف من أنواع الجماعات ، فكيف يخلو ميدان « الفكر الحر » من جماعة تصاول في سبيل حمايته من طغيان أهل الغفلة والجمود ؟

وكيف يخلو زماننا من رجال يضحون بمنافعهم في سبيل الحرية الفكرية ؟

وبأي وجه نلقى الله إذا تراجعنا وبأيدينا أسياف الحق وهي أقلامنا ؟

الجبن جائز على أي مخلوق ، إلا أن يكون من حملة القلم أو السيف ، فإن كنت منا فأقدم غير هياب ، وإلا ففي ميدان السلام الرخيص متسع للجبناء

أخوف ما يخافه المفكرون من أبناء هذا العصر هو أن تصبح أعراضهم مضغة في أفواه الغافلين والجاهلين ، وما خطر ذلك وهو هباء في هباء ؟

إن لحومنا لحوم الأسود ، ولا تدخل مضغة منها جوف رجل إلا مزقته أفظع تمزيق ، وسوف يعلم المرجفون نبأ هذا النذير بعد حين

ثم اسمع ، يا صديق

هل تعرف الأثر الذي يقول « من مات غريباً مات شهيداً » ؟

كان المفهوم أن المراد هو الغربة الجسمية ، كأن يموت الرجل في بلد غير بلده ، فكيف يصير من يموت وهو في غربة روحية أو عقلية ؟

عند الله تدخر الجزاء على هذا الاغتراب ، وكيف يغترب من

يأنس بالله ويكاد يراه في كل وقت وفي كل مكان ؟

إليك أوجه أشواقي ، أيها المحبوب ، وذلك هو اسمك عند الصوفية . إليك أوجه أشواقي ، فلولا الإيمان بسمو حكمتك في خلق الوجود على هذا الأسلوب لكانت الإقامة في بعض نواحيه جحيما لا يطاق

وأنا مع ذلك عاتب ، فما الذي يمنع من أن ترفع الحجاب لأعرف بعض ما أجهل من أسرار هذا الوجود

لقد هديتني فعرفت أن لك حكمة في خلق « الكوبرا » وهي أشرس الحيات ، لأن سمها ينفع في دفع أشرس الأمراض وهو السرطان

فمتى تهديني لأعرف حكمتك في خلق الدساسين والنمامين والمفسدين والمرجفين من صاغة الزور والبهتان ؟

أيكونون من « الكوبرا » الآدمية ؟ !

العدل بين الأرض والسماء

كتب أحد الوعاظ كلمة في إحدى المجلات رداً على ما قلت في الوعاظ وقد أراد ذلك الواعظ أن يذكرني بأهمية الوعظ فذكر أشياء يجب أن ينزه عنها الجمهور المصري ، ومن تلك الأشياء تقديم العرائض إلى ضريح الإمام الشافعي ، لينصف المظلومين من الظالمين

وكلام هذا الواعظ حديث مساد ، فقد قيل هذا الكلام قبل مئات السنين ، وهو لا يدل على فكر ولا عبقرية ، لأن أصغر متعلم يدرك أن الأمر بيد الله وحده ، وأن الشافعي لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً أو نفعاً ، فجهاد الواعظ في مثل هذا الشأن كتجاهد في غير ميدان

ولكن هذه العرائض لها مغزى فلسفي لا يفطن إليه ذلك الواعظ اللبيب ، وذلك المغزى هو اليأس من العدل بين أبناء الأرض ، والشعور بأن العدل لا يصدر إلا عن السماء

ومن هم المحتكمون إلى الإمام الشافعي ؟

هم جماعات من العوام عجزوا عن تقديم عرائضهم إلى ساحات القضاء ، لأنهم لم يجدوا الرسوم ، أو لأنهم لم يجدوا الشهود ، أو لأن حقوقهم على عرائضهم بلغت من الخفاء مبلغاً لا يفصل فيه غير السماء ، لأن قضاة الأرض لا يحكمون إلا بعد ظهور الأدلة والبراهين ، وهي لا تظهر في جميع الأحيان

هل سمعتم أن وزارة العدل كلفت أحد رجالها درس تلك الشكايات ؟

كل ما يقع هو اهتمام الشيخ القائم على الضريح بتمزيق تلك العرائض حتى لا يجدها الشاكون في أماكنها عند رجوعهم إلى الضريح ، وبذلك يفهمون أن الإمام الشافعي أخذها بيديه الكريمتين ليدرسها بعناية ، وليصدر حكمه الصارم على الظالمين

وإنما يفعل ذلك شيخ الضريح ليضمن عودة أولئك العوام بالنذور والهبات ، فهل أدبته وزارة الأوقاف ليكف عن عمله « المقبول » ؟

وكيف نعيب على العوام أن يستعينوا بالإمام الشافعي ، وجمهور المتعلمين في مصر يؤمن بأن لا تقديم ولا تأخير بغير الوساطات والشفاعات ؟

إلتفتوا مرة واحدة إلى هذه المعاني ، يا جماعة الوعاظ ، ولا تكتفوا بإعادة الدروس التي تلقيتموها عن أشياخكم ، وهي دروس لم تصل بهم ولن تصل بكم إلى يقين

الى وزير الأوقاف

وزير الأوقاف لهذا العهد هو أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية من قبل ، والتفاتاته الذهنية تجعل الفرصة مواتية لدرس هذا الموضوع الدقيق

وأنا أقترح أن يؤلف لجنة لدرس الشكايات التي توجه إلى المزارات المصرية لنعرف فهم الشعب لقدسية العدل ، ولنعرف أسباب يأسه من إنصاف القضاء

فإن أجاب — وسيجيب — فقد نظفر بفكرة فلسفية تؤكد القول بأن لا جديد تحت الشمس ، وأن الذين يقدمون شكاياتهم إلى المزارات الإسلامية كان لهم أجداد يقدمون شكاياتهم إلى المزارات الوثنية ، والمعنى واحد عند أولئك وهؤلاء ، ومرجعه الأول هو اليأس من عدل الأرض ، والشواهد تنطق بأن لهذا المعنى وشائج في الحياة المصرية

يجب أن تصادق سكرتير الوزير لتصل إلى الوزير

ويجب أن تصافي سكرتير الوكيل لتصل إلى الوكيل

فما ذنب العوام في أن يتوهموا أن الحضرة السماوية لها